إحساس بالذنب

لم يذهب أحمد إلى عملـه فى صبيحة اليوم التالى كما اعتاد أن يذهب منذ حضوره إلى هذا المكان . . وانتظر زملاؤه قدومه بين وقت وآخر . . فالعمل فى حاجة ملحة إليه . وسألت منى آمال عنه فقالت لـها : إنها تركته عند مدخل الشاطئ فى حالة نفسية سيئة بعد أن قست عليه فى القول وأشعرته بأنه السبب فى موت أخيه والـهوان الذى نزل بها . . ولاشك أن يعيش الآن تحت ضربات موجعة من سياط الضمير . . لعلـه يكفّر عن بعض ما فعل .

وأمسكت بها منى فى عصبية قائلة : إنك تحطمينه يا آمال وتحفرين قبره بيديك . . دعيه يعيش فهو إنسان منكوب يشعر بالضعف والضياع . . تشتتت اهواؤه وعواطفه فلم يعد يجد أرضًا يقف عليها بعد فقده لأسرته . . حاولى وأنا معك أن نعيد إليه ثقته بنفسه ونجعل من كلينا أسرة بديلة لـه عن أسرته الشهيدة، ولو حاولت بصدق وإخلاص لاسترد عزيمته الواهنة وصنعنا منه بطلاً كما كان فى الماضى . إن لم يكن من أجلنا فمن أجل العمل الذى نحبه ونضحى من أجله وضحى فى سبيلـه أبوانا وإخوتنا . . من أجل كفاحنا وآمالنا . . إننا نحتاج إليه . . إلى الأبطال من أمثالـه فى تلك الظروف القاسية التى نعيشها ويعيشها الوطن .

انزعى من قلبك القسوة عليه . . وكونى به رفيقة عطوفة وستجدينه إنسانًا جديدًا قويًّا كما عرفناه ـ أنا وأنت ـ من قبل . . إنه يحبك يا آمال كثيرًا . . فاتخذى من هذا الحب وسيلة لحياته لا لموته .

وسكتت منى وقطرات من الدمع تترقرق فى عينيها يمنعها الكبرياء من

النزول . . ونظرت إليها آمال ثم قالت : بل أنت التى تحبينه يا منى . . وتحبينه بعنف . ولو عرف الطريق الصحيح لاختارك زوَجة لـه . . فمهما حاولنا أن نخفى عواطفنا أو نداريها فلا بد أن تظهر .

وقطع عليهما الحديث ضوضاء وحركة غير عادية فى برج المراقبة . . وعرفا أن إحدى السفن الكبيرة قد جنحت فى القناة قبل أن تصل إلى منطقة المرشدين . . ويبحث الجميع عن أحمد ويرسلون فى طلبه ليحضر سريعًا حتى يمكن انقاذ السفينة قبل أن تتعرض للخطر .

ويُقبل أحمد على عجل وشعره مشعث وعيناه ذابلتان وصفرة تعلو وجهه يحيطها غشاء من الحزن يدعو للرثاء والشفقة . . ولأول مرة تنظر إليه آمال بإشفاق . . ويراه الموظفون على هذه الـهيئة . . وتسرع إليه منى وتخبره بالسفينة التى جنحت ويبدو على وجهها الاهتمام . . وكأنها تريد أن تقول لـه شيئا . . ويبحث أحمد عن المرشدين فلا يجد أحدًا منهم ويقف حائرًا لا يدرى ماذا يفعل .

وتتقدم منه منى قائلة فى ثقة : لا يستطيع أحد أن ينقذ هذه السفينة إلا أنت . . إن سمعة الـهيئة ومكانتها بين يديك . . فلا تبدد هذا الرجاء . . ولا تترك فرصة ليتهمنا العدو بالعجز والتقصير .

وينظر إليها أحمد غير مصدق حديثها ويتكلم كأنما يحدث نفسه : أنا إنسان معوق غير قادر على العمل . . يظنون أننى قتلت جابرًا ويحزنون عليه لأنهم يفتقدونه الآن . أنا لم أفعل هذا . . ولم أفكر فيه . . وهل يستطيع مثلى أن يقود سفينة ويرشدها . . إن حديثك يا منى لون من العطف أشكرك عليه أردت به أن تشعرينى أننى مازلت أعيش بينكم . وتدخل آمال بسرعة وتتجه إليه قائلةَ وهى تراقبه فى نظرة حانية : بل أنت قادر يا أحمد . . كيف تدعونا للحياة والأمل

وأنت تتهرب منهما . . إننى أثق فيك كما يثق بك كل زملاؤك . . أرجوك أن تذهب الى السفينة من أجلى ومن أجلنا جميعًا ومن أجل مصر . . دع الماضى وانسَ ما تكلمنا فيه . . لقد قلته فى لحظة ضعف وتوتر . . إنك أديت واجبك ولن تستطيع أن تصد أمرًا أراده الله . هيا يا أحمد ولا تتردد . . ودفعته بيدها فى رفق . . فأحس كأن ملمسها السحر يشده للأمام . . ونظر إليها وإلى منى وعاد ينظر إلى عصاه . . فانتزعتها آمال من يده ليتحرر من الوهم الذى يقيده ويشده إلى الأرض . . ويتدفق الحماس فى أوصالـه وتتسع خطاه وكأن الزمن الذى فصل بين ماضيه وحاضره قد انسلخ من حياته فعاد سيرته الأولى .

وركب أحمد أحد الزوارق السريعة فاندفع به نحو السفينة الجانحة والجميع ينظرون إليه فى قلق وترقب . . بينما عينا أحمد مثبتتان على السفينة . . ويراها فى أول الأمر سدًّا هائلاً كبيرًا فيبدو القلق على وجهه ويتصبب العرق من جبهته . . ويعاوده إحساسه الداخلى بالعجز . وتحدثه نفسه بالتراجع . . وفجأة يقف الزورق أمام سلم السفينة ولم يعد ثمة مجال للـهرب، ويتحرك أحمد ببطء شديد ناظرًا مرة إلى أعلى . . وأخرى إلى أسفل . . وثالثة إلى ساقه الخشبية . . وإذا درجات السلم التى لا تتجاوز عشر درجات تطول وتطول حتى تكاد أن تصل إلى السماء . . ويستحثه قبطان السفينة على الإسراع . . فيتقدم كأنما يساق إلى الموت . . ويحاول أحد البحارة أن يمسك بيده . . فينتزعها منه بقوة وتتراءى لـه آمال وهى تناديه : هيا من أجلنا . . ومن أجل مصر . . ولا تخيب آمالنا فيك .

فيفيق من تردده ويسرع نحو برج السفينة وقد تملكه إحساس قوى بأنه قوى وقادر ولن يعوقه شيء عن العمل . . ودقت أجراس السفينة استعدادًا للعمل . . ويبدأ أحمد فى قيادة السفينة وإخراجها من المأزق الذى وقعت فيه .

وبصعوبة ومهارة عُرفت عنه . . نجح أحمد فى مهمته، وتأخذ السفينة مجراها السليم . . ويصفق الجميع لأحمد ويرسلون لـه التهنئة عبر الـهاتف اللاسلكى . . وتجلس منى على مقعد وقد سرحت بعينيها إلى بعيد . . وآمال تنظر إلى السفينة وقطرات من الدموع تتجمع فى عينيها .

وتضع منى يدها على كتف آمال وهى تقول : أرأيت صدق ما قلته لك . . إن كلمات قليلة منك أعادت أحمد بطلاً كما كان . . ورب كلمة تفعل فى النفوس ما لا يفعلـه السَحر .

وأشرقت على أحمد حياة جديدة وعاودته الثقة بنفسه . . وعاش إنسانًا عاديًّا يفرح ويحزن كما يفرح ويحزن الناس . . وزاول عملـه فى نشاط وهمة استلفتت نظر زملائه ورؤسائه دون أن يعرفوا سبب هذا التغيير المفاجئ . . وقال بعضهم : إنه يريد أن يعوض حياة أخيه جابر ويضيف ما ذهب من عمره إلى عمل متواصل كلـه حيوية وإخلاص .

ولم يتردد فى قيادة أكثر من سفينة بنفس الثبات والمهارة التى كان عليهما من قبل .

ولم ينغّص عليه صفو حياته إلا فقده جابرًا . . وإحساسه أحيانًا بالذنب . . ونظرة الشك التى يلاحظها من آمال . . فتحرق أعصابه وتعيده إلى دوامة الألم والعذاب .

وفى إحدى الأمسيات وعند انصراف الموظفين . . يطلب أحمد من آمال فى قوة وثقة أن يسير معها إلى منزلـها . . إنه يطلب منها ذلك فى غير حرج . . بعد أن أصبح قادرًا على السير بثبات وعلى الأخذ بيديها كأى رجل قوى . . وفى الطريق على شاطئ البحر ونسمات رقيقة تداعب أوراق الشجر وأضواء خافتة

من بعض المصابيح الذابلة ترتمى تحت أقدامهما . . يستيقظ إحساس أحمد القديم نحو آمال . . فلم يعد هناك حائل يقف بينه وبينها . . فيطلب منها فى صراحة أن تنسى الماضى بكل ما فيه . . إن نكبتها فى جابر لا تقلّ عن نكبته . . لقد كان يحبه مثلـها بل أكثر . . إنه يرى فيه استمراراً لكفاح شاءت ظروفه أن يتراجع عنه . . ويرى فيه صباه وشبابه وأباه وأمه وأخاه . . يرى فيه الماضى والحاضر والمستقبل أيضًا . . ولكن القدر الذى يأخذ بيد يعطى باليد الأخرى . . أخذ جابراً بعد أن قام بعمل كبير يخلده فى سجل الأبطال . . وأعطانى ما فقدته من نفسى . . أعطانى الثقة والثبات والأمل . . وأعطاك أنت جزءاً منه تركه ينمو فى داخلك . . وغداً يصبح بديلاً عنه فى الحياةَ . . والفضل فى ذلك يرجع لك وحدك ولأخى . . فهل تقبلى يا آمال أن نكمل ما بدأه أخى معك . . وما بدأته أنت معى . . وكلاهما بداية للحياة والحب والتمسك بالبقاء . . إننى أعاهدكَ علىَ الإخلاص والوفاء وتحقيق الـهدف المشترك لى ولك وللطفل الذى سيأتى . . سيكون ابنى أمام الناس وابن أخى أمام الله .

إننى أريد أن أتزوجك يا آمال غداً أو بعد غدٍ . . فلا تهربى من واقع يحتم علينا ذلك .

وتكاد آمال ألا تصدق أذنيها . . كيف يطلب منها هذا الطلب؟ ! لقد صممت أن تعيش أيامها الباقية لذكرى جابر الشهيد ولأجل ابنه .

ويردّ عليها أحمد فى صرامة : ومَن أحق منى بالاشتراك معك فى حمل المسئولية . . إن المجتمع الذى نعيشه لن يقبل منك طفلاً لا أب لـه . . وأنا مستعد لأن أعمل ما أستطيع لحفظ الشكل الظاهرى الذى اصطلح عليه الناس . . وصونًا لكرامة الإنسانة التى كانت ستصبح زوجة لأخى فى يوم ما . .

وعندئذ تفر منه آمال مسرعة دون أن يأخذ جوابًا .

وفى البيت تظل ساهمة تفكر فى الأمر . . هل تستطيع أن تربط حياتها بإنسان لا تحبه . . ألا تكون مخطئة ومتجنية على نفسها وعليه؟

ولكنه يقدّم لـها أجمل حل مناسب ينقذها مما هى فيه . . إنه يضحى بأشياء كثيرة لا يرتضيها غيره أو يقبلـها . . وربما يريد مما يفعل أن يكفّر عن الأخطاء التى يظن أنه اقترفها .

وفى اليوم التالى تُحدث منى بما دار بينها وبين جابر بالأمس . . ولدهشتها تحثها منى على الزواج من أحمد مؤكدة لـها أنه يحبها ولولاها ما انحلت عقدة إحساسه بالعجز . . وعاد إلى سيرته الأولى . . فلا تكونى أنانية فى عواطفك . . حاولى أن تضحى . . فالحياة ليست كلـها أخذ بل هى أخذ وعطاء، وأرى أن تستجيبى لـه سريعًا .

فترد عليها آمال : كيف تقولين ذلك وأنت تحبين أحمد وتتمنين الزواج منه؟! إننى أحسّ بك يا منى وأقدر عواطفك النبيلةَ وتضحيتك من أجلى . . تحرقين نفسك لتضىء لى الطريق وتردى إلىّ اعتباراً يوشك أن يضيع منى إلى الأبد .

فتقول منى بسرعة : أنت يا آمال أحق به منى . . فهو يحبك حبًّا كبيراً . . ملك عليه مشاعره فعاد الآنَ أقوى مما كان عليه بعد موت جابر . . وأنا إنسانة واقعية فى حياتى، وأدرك أن أحمد لم يحسّ بى ولا بحبى، ولم يدرك حقيقة عواطفى فى يوم من الأيام . . إنه يعاملنى كزميلة وصديقة مثل غيرى ممن يلتقى بهن . فلا تتردى يا آمال وأسرعى بالزواج منه .

واستجابت آمال لأحمد وتم الزواج فى صمت لم يحضره إلا عدد قليل من الأهل والأصدقاء . . وأحست آمال أنها تسير فى الطريق الوعر الذى رسمه

لـها القدر . . طريق التضحية بالنفس ومشاعر الذات . . من أجل كرامتها وسعادة الجنين الذى يحمل لـها أجمل الذكريات فى حياتها .

وعندما يغلق الباب على العروسين فى أجمل ليالى العمر . . ينظر أحمد إلى آمال ولا يعرف ماذا يقول . . أنه يريد أن يترك عواطفه لتقول ما يرى . . وينتظر منها أن تبرهن على أنها تزوجته عن حب واقتناع لا عن شيء آخر وضرورة ملحة . . وتنظر إليه آمال وكأنما تعتذر عن تجاهلها لـه وعدم تجاوبها معه، وتحس بأزمته النفسية تتصاعد منها لينقذها من القيل والقال وينقذ سمعتها . . ماذا كانت تفعل لو لم يقم بهذا العمل . . إنه هو الذى ضحى وليست هى . . ومن واجبها أن تكافئه على تضحيته وتعطيه الحق الذى ينتظره .

وتقدم لـه نفسها كطائر مذبوح يستسلم لصائده، ويدرك أحمد ما يدور فى داخلـها من صراع . . فيعدل عن رغبته ويبتعد عنها . . ولا يقبل أن تقدم لـه نفسها كضحية . . فليتركها الليلة . . ومَن يدرى . . لعلـها تكتشف حبه مع مرور الأيام . . وتنسى الماضى ـ طيف أخيهـ الذى يقف دائمًا بينهما . . ويصبحان زوجين أمام اللـه . . كما أنهما زوجان الآن أمام الناس . . ويقرر الانتظار والصبر .

وتتوالى الليالى يدفع بعضها بعضًا . . وأحمد وآمال كلاهما فى عذاب . . هو يريد حقه الشرعى . . وهى تحسّ مانعًا يحول بينها وبين ما تريد دون أن تعرف حقيقة هذا المانع .

لقد حاول معها مرات ومرات دون جدوى حتى خيل إليه أنها حجر لا يدرك ولا يحس . . وتأكد بينه وبين نفسه أنها قبلته مرغمة صاغرة .

وذات ليلة ثار عليها وقد فقد هدوءه وراحته . . أليس ما يطلبه منها من حقه

عليها كزوج . . إنها تحرج أحاسيسه بهذا التجاهل . . وما يؤلمه ليس مجرد حاجته إليها كزوج يطلب شيئًا ماديًّا . . وإنما يؤلمه أكثر حاجته إلى مودتها ورحمتها كإنسان يريد الاستقرار والسكن .

وذات مرة جلس يداعبها فى هدوء الليل وقد أحسّ أنها مقبلة عليه فنظرت إليه فى حب وإشفاق كأنها تعتذر عن سلوكها ونفورها منه . . حتى إذا أحس بقرب الانسجام والناغم بينهما ، إذا بها تفر من أمامه فجأة وهى تبكى إلى مكان بعيد . . إنها تهرب من نفسها كمحبة ومن ضعفها كأنثى .

ويجلس أحمد مرهق النفس يحس بالخيبة والفشل ويوشك أن يعاوده إحساسه بالضياع . وتأكد تمامًا أنه لا سبيل إليها . . وتركها وقد أسلمه اليأس لما تريد .